المقدمة

الحمد لله حق حمده، والصلاة والسلام على نبيه وعبده سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين ..... أما بعد...

فمما لا غرو فيه فإن " الشعر الجاهلي لا يزال مذخورا بالكنوز المسهو عنها، وهو الجذر الذي تفرعت منه فروع الشعر في الأعصار المختلفة، وفي البقاع المختلفة، والأزمنة المختلفة إلى يومنا هذا، وليس عندنا بعد كلام الله وكلام رسوله ﷺ بيان أعلى منه، وهذا ما أجمع عليه علماء الأمة" [١].

والمتتبع للحياة الجاهلية يجد أن العلاقات الاجتماعية محكومة بسلطة القبيلة، فهي الدافع وراء تصرفات الأفراد، وما يمارسونه من مواقف، ومهما يكن ارتباط العربي بقبيلته فإن ذلك الارتباط والولاء لم يكن مذيباً لشخصيته، فقد امتلك العربي من الصفات والخصائص ما استطاع أن يرسم به صورة مشرقة مغايرة لما رسمه بعض الدارسين من صورة مشوهة قوامها القتل والسلب والنهب .....

وعلى الرغم من وجود بعض تلك الصفات فإنها لم تكن مسيطرة على المجتمع العربي الجاهلي، فالميراث الشعري الذي بين أيدينا يمثل قيماً إنسانية سامية، وفضائل اجتماعية كريمة .

لا شك أن القيم الإنسانية ارتبطت بوجود قوة خفية توظَّف بمقتضاها تلك القيم لخدمة الإنسان، وإن اختلفت الأمم عبر العصور في تحديد تلك القوة الغيبية، فقد تأثرت الأمم التي آمنت بالأديان السماوية بمثل عليا مستمدة من التوراة والإنجيل، ولا يستبعد أن يكون العربي الجاهلي تأثر من بعيد أو قريب بتلك القيم المنبثقة من أصل ديني، فعلى الرغم من الرأي الذي يسم العصر الجاهلي بكونه عصراً وثنياً، فمن المرجح أن هناك الكثير ممن تأثروا بالتعاليم السماوية قبل الإسلام.

كما أن هناك نسبة من جاهلية العرب اعتنقت بعض الديانات وطبقت تعاليمها قولاً وفعلاً، ولذلك أثر في إرساء كثير من القيم لا محالة.

"وهذه القيم الأخلاقية لا تفرض من الخارج ولا تملى من الغير، ولكن تنفجر ينابيعها من داخل نفس الإنسان الذي آمن بها فيحس بالرضا والاسترواح والانطلاق من قيود الأثرة والإسفاف، وذلك بعد أن تسكب هذه القيم رحيقها في نفسه، وتحقق معناها في وجدانه...." [٢].

ومفهوم القيم يهتم بجميع الجوانب الحياتية المحيطة بالإنسان، لذا فإن القيم تضطلع بدور مهم في تقييم السلوك الإنساني، وقد تكون القيم

---

[١] الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء / مقدمة الكتاب ، أد. محمد محمد أبو موسى ، ط ٢ مكتبة وهبة ٢٠١٢ م

[٢] أصداء القيم في الشعر الجاهلي، أد عبده السيد فراج ٢٨٧ بحث منشور في حولية كلية اللغة العربية بالمنصورة جامعة الأزهر

ذات دافع قوي يؤدي إلى تغيير واقع الإنسان سعياً وراء المَثل الأعلى المنشود، والقيمة مثل أعلى نصبو اليه، ونتطلع إلى تحقيقه فالقيمة تحدد اتجاه السلوك الإنساني، وترسم مقوماته، وقد تكون هي الباعث على ذلك السلوك.

والإنسان أهل للخير والشر، فهو محمود بالخير، مذموم بالشر، ولايعني ذلك أنه يذمّ ويحمد في آن واحد، وإنما معناه أنه أهل للكمال والنقص، بما فطر عليه من استعداد لكل منهما، فهو أهل للخير والشر لأنه أهل للتكليف.

ومن "المعتقد أن القيمة الخلقية تنشأ في المجتمع عن إرادة الإنسان وفعله، لتحقيق غاية معينة، وهذه الغاية إما أن تكون للمحافظة على حياة الفرد والجماعة، وإما أن تكون لتنمية الحياة الاجتماعية إلى مرحلة تمكن الفرد من أن يعيش عيشة تتفق فيها أغراضه وغاياته مع أغراض غيره من الأفراد وغاياتهم"[٣].

إذاً "القيمة تنشأ بداية من نزوع الإنسان ورغبته في فعل يراه خيرا، ويشبع ميله"[٤].

وفي الوقت نفسه" يلائم الإنسان مصالح أفراد المجتمع حوله، ويجعلهم متفقين معا على إشباع هذا النزوع، وتحقيق هذا الفعل، وفي كل حال فإن القيمة إدراك ووعي أولا، ثم تحقيق وفعل بعد ذلك"[٥].

إن القيم الإنسانية من أهم ما يميز المجتمع البشري عن غيره من المجتمعات، فدورها فاعل ومؤثر في تشكيل المجتمع وإعطائه بعداً مستقبلياً يضمن للإنسان حياة أفضل، والقيم الإنسانية المكتسبة في المجتمع تجعل من الإنسان شخصية حكيمة تحمل صورة مشرقة ومشرّفة لذلك المجتمع.

وبالنظر في آداب تلك الأمة العريقة نجدها قد خطت خطوات واسعة في الجانب الخلقي والتربوي، يقول الأستاذ الزيات: "ولو ساغ لنا أن نحكم على العرب بمقتضى لغتهم وأدبهم لوجدنا لهم نفوسا كبيرة، وأذهانا بصيرة، وحنكة خبيرة، ومعارف واسعة، كوّنوا أكثرها من نتائج قرائحهم، وثمار تجاربهم، فإن لغتهم وهي صورة اجتماعهم لم تدع معنى من المعاني التي تتصل بالروح، والفكر، والجسم، والجماعة، والأرض والسماء، وما بينهما إلا استوعبت أسماءه، ورتبت أجزاءه"[٦].

"ويبين لنا الشعر الجاهلي في كثير من مواضعه، أن العرب كانت لهم أخلاق شاعت بينهم، وتقبلوها سلوكا يسيرون عليه، ودعا

---

(٣) ــ المدخل إلى الفلسفة: أزفلد كوليه، ترجمة أبو العلا عفيفي ٢١٣ مكتبة النهضة القاهرة ١٩٦٥م

(٤) ــ مبادئ النقد الأدبي: أيغور آرمسترونج رتشاردز، ترجمة مصطفى بدوي ٨٩ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة مصر القاهرة ١٩٦٣م

(٥) ــ الإنسان في الشعر الجاهلي. د. عبد الغني أحمد زيتونة ١٨٦ ط١ ١٤٢١ه- ٢٠٠١م منشورات مركز زايد للتراث والتاريخ. الامارات العربية المتحدة. العين

(٦) ــ تاريخ الأدب العربي أحمد حسن الزيات ١٢ ط دار نهضة مصر ــ القاهرة ــ ١٩٨١م

بعضهم بعضا على الأخذ بها، والاهتداء بنبراسها، ولعلهم كانوا من أوائل الأمم التي اعتدت بمكارم الأخلاق، وافتخرت بفضائل الخلال.... ويبدو أن الذي ساعد على بقاء القيم الخلقية بين العرب واستمرارها هو ما يتصف به المجتمع الجاهلي من نزوع إلى المحافظة، وإلى التمسك بالأعراف والتقاليد، ولاسيما بين القبائل المستقرة"[٧]

وهذه القيم الأخلاقية يعتنقها المجتمع اعتناقا، وعلى ضوئها يصدر أحكاماً ينتج عنها تكوين القواعد الأخلاقية، أو ما يسمى بالنظام الأخلاقي، هذا النظام لابد أن يكون ملزما لأفراد المجتمع في سلوكهم، وأي خروج عليه له تبعاته على الفرد.

ويعدّ البحث في "الحياة الأخلاقية الإنسانية مما تنطوي عليه من آيات الخير، وأسس الواجب، وضروب الفضيلة، من أوثق الأبحاث اتصالاً بالفكر البشري" [٨]

ومن الواضح أن لكل شيء مصدرا ينطلق منه، والقيم الخلقية في الشعر الجاهلي لها مصادر متعددة؛ فقد يكون مصدرها فطريا، نابعا من الفرد، وقد يكون وراثيا، وقد يكون غير ذلك حسب كل قيمة، لأن التاريخ لم يسجل لنا بداية نشأة هذه القيم.

ولا غرو فإن المجتمع الجاهلي "كان يقدر القيم الخلقية تقديرا كبيرا، فينشرها بين أفراده، ويعلي شأن من يتحلى بها، جاعلا الشعر وسيلته الأولى إلى ذلك"[٩]

لذا فإن أبرز ما تطمح إليه هذه الدراسة وتسعى إليه هو استكناه الجوانب الإنسانية لدى الشعراء الجاهلين من خلال تتبع نتاجهم الشعري، الذي أورده مؤلف الحماسة البصرية.

مفهوم الحماسة وأهميتها:

الحماسة ليست من المواضيع الشّعريّة التي استُحدثت في العصر الإسلاميّ، بل إنّها موضوع قديم، ظهر في الشّعر الجاهليّ، وارتبط بالحروب القبليّة، وكان العرب يدمجونها في مدحيّاتهم، وفخريّاتهم، ومرثيّاتهم، ومهجيّاتهم.

والحماسة: من: حَمِسَ الشَّرُّ: اشتدَّ، والحَماسَة: المَنْعُ والمُحارَبَةُ، والتَّحمُّسُ: التشدد، حَمَّسَ الرجلُ إذا تَعاصَى، وتحَامَسَ القومُ تَحامُساً وحِماساً: تشادّوا واقتتلوا، والأَحْمَسُ والحَمِسُ والمُتَحَمِّسُ: الشديد، والأَحْمَسُ أَيضاً: المتشدِّد على نفسه في الدين.

والحُمْسُ: قريش؛ لأَنهم كانوا يتشددون في دينهم وشجاعتهم فلا يطاقون، وقيل: كانوا لا يستظلون أَيام منى ولا يدخلون البيوت من أَبوابها وهم محرمون ولا يَسْلأُون السمن ولا يَلْقُطُون الجُلَّة.

والأَحْمَسُ: الوَرِعُ من الرجال الذي يتشدد في دينه.

---

[٧] الإنسان في الشعر الجاهلي. د. عبد الغني أحمد زيتونة ١٨٥

[٨] الأبحاث الأخلاقية، عادل العوا/ ٥ دمشق، ١٩٩٩ م

[٩] الإنسان في الشعر الجاهلي. د. عبد الغني أحمد زيتونة ٢٠٣

والأَحْمَسُ: الشديد الصُّلْب في الدين والقتال، وقد حَمِسَ، بالكسر، فهو حَمِسٌ وأَحْمَسُ بَيِّنُ الحَمَسِ[١٠].

واضح من معنى الحماسة اللغوي أنها تدل على: الشجاعة، والشدة، والمنع، والمحاربة، والقوة والهياج والغضب، وكل المعاني التي تتفرع مما يدعو إلى الحرب، والاقتتال، كإثارة النخوة، والتغني بصفات المروءة، والاحتمال، والصبر، والإباء، والجرأة.

وعلى كل فهي الشدة في كل شيء، وما يدور في فلك الحرب وما يتصل بها.

وعلى هذا قامت مختارات أشعار الحماسة التي بدأها أبو تمام وسار على نهجه من جاء بعده من المؤلفين، إلا أن تسمية الحماسة لمصنفاتهم جاءت على سبيل التغليب، حيث يتصدر باب الحماسة كل هذه المصنفات، بينما لا تدخل الأبواب الأخرى في موضوع الحماسة ولا في مفهومها.

لقد "احتفظت لنا الحماسة البصرية بمجموعة ضخمة من القصائد والمقطعات تعادل ضعف ما أنهته إلينا حماسة أبي تمام، استمد المصنف مادتها من كتب معروفة لنا كحماسة أبي تمام، والبحتري، وابن الشجري، وأشباه الخالديين، وأمالي القالي، ومن كتب أخرى لم تصل إلينا، ودواوين لها روايات مختلفة عن تلك التي بأيدينا، فكان أن ضم الكتاب أشعارا لولاه لما عرفنا عنها شيئا، ولفقدت فيما فُقِد من تراثنا النفيس" [١١]

وحيث إن الدراسة تبعاً لعنوانها تحمل موضوع القيم الإنسانية في الشعر الجاهلي فقد أغفَلت ما أورده المؤلف عن الشعراء غير الجاهليين كالإسلاميين والأمويين...

وعندما نتأمل مفهوم القيم نجد بأنها تعرّف لدى علماء اللغة بجمع قيمة، والقيمة ثمن الشيء، يقال: كم قيمة ناقتك؟ أي كم بلغت وقيمة الشيء: قدره، وقيمة المتاع أي ثمنه، وقوّم المعوجَّ: عدَّله وأزال عوجه، وقوَّم السلعة: سعَّها وثمَّنها، وقيّم الشيء تقييما: قدّر قيمته[١٢].

وفي الاصطلاح تعرّف بأنها: " صفات أو مثل أو قواعد تقام عليها الحياة البشرية فتكون بها حياة إنسانية، وتُعَايُر بها النظم والأفعال لتعرف قيمتها الإنسانية من خلال ما تمثله منها " [١٣].

وقد ذهب الأستاذ أحمد لطفي إلى تعريف القيم بقوله: القيمة الإنسانية "مجموعة من القوانين والمقاييس تنشأ في جماعة ما، ويتخذون منها معايير للحكم على الأعمال والأفعال المادية والمعنوية، وتكون لها صفة

---

[١٠] لسان العرب، ابن منظور، دار المعارف، القاهرة/ حمس

[١١]) الحماسة البصرية ٢/ ٧ ، ٨ تح د. عادل سليمان جمال ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة ١٤٠٨ه / ١٩٨٧م

[١٢] لسان العرب / قوم

[١٣] الفلسفة وقضايا العصر، عبد الرحمن الزبيدي/٤٥، دار أشبيليا، الرياض، ط١، ١٤١٨ هـ

الإلزام والضرورة، والعمومية، وأي خروج عليها أو انحراف عن اتجاهاتها يصبح خروجاً على مبادئ الجماعة وأهدافها ومثلها العليا"[١٤]

ويمكننا القول باختصار: إن نسق القيم هو " تلك المجموعة من المبادئ التي تربط الفرد بهويته، والمجتمع بتقاليده، وتنظِّم العلاقات بينهم"[١٥]

ونرى من خلال ذلك أن القيمة هي الشيء المرغوب فيه أو هي مجموعة المعايير والمبادئ التي يلتزم بها المجتمع، أو أغلب أعضائه سواءً أكان ذلك صراحةً أم ضمناً، وهي مثل أعلى نصبو إليه ونتطلع إلى تحقيقه.

لذا رأينا شاعرنا الجاهلي يفتخر بأخلاق وقيم كانت ثمرة حاجاته وصور معيشته وسجلاً حافلاً بتعاملاته وعواطفه فقد أشاد بعزة النفس، وكُره الذل، والولاء للقبيلة، والصبر، وحب السلام، والشجاعة، والكرم، وصلة الرحم، وحسن المعاشرة، وإسداء النصيحة والتجارب، والحلم، وما إلى ذلك من القيم الإنسانية الرفيعة التي يعجّ بها ديوان الشعر العربي الجاهلي وأبرز هذه القيم وأولاها تباعاً:

أولاً: عزة النفس:

إن عزة النفس همة عالية، والهمة العالية ترتقي بالإنسان إلى أعلى درجات الرقي فالهمة العالية ترفعه للعطاء والبذل والتحلي بالخصال الحميدة والسعي إلى تحقيقها، وقد نجد الكثير من الخصال الحميدة في شعر الشعراء الجاهليين فقد كان العربي عزيز النفس يرضى الموت ويفضله على أن يعيش ذليلاً، وقد كره بعضهم أن تدفن رفاته بعد موته تحت الثرى، فقد قيل للشّنْفَرَى عند أسره، كيف تحب أن نقتلك؟ وأين ندفنك؟ فقال:

لا تقبروني إن قبري محرّم
عليكم ولكن أبشري أم عامر[١٦]

ومن عزة النفس وترفعها قول الحارث بن عُباد البَكري – شاعر وفارس جاهلي شهير – إثر حرب البسوس وقد اعتزلها بادئ الأمر، ولكنه لم يجد بداً من الاكتواء بنارها إثر قتل ابنه، فتجلى لنا شيء من عزة نفسه وخلقه الرفيع وهمته العالية إذ يقول:

قربا مربط النعامة مني
لقحت حرب وائل عن حيال
قرباها في مقربات عجال
عابسات يثبن وثب السعالى
قربا مربط النعامة مني
قربا مربط النعامة مني
جد أمر للمعضلات الثقال
تبتغي اليوم قوتي واحتيالي

---

(١٤) في فلسفة التربية، أحمد لطفي بركات/ ٤٥، دار المريخ للنشر، الرياض

(١٥) علم اجتماع القيم، محمد أحمد بيومي/ ١٥٨، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية

(١٦) الحماسة البصرية تح د. عادل ٢٩٨/١

قربا مربط النعامة مني
باذلاً مهجتي لزرق النصال
لم أكن من جناتها علم اللـــ
ـــه وإني بحرها اليوم صال[١٧]

***

ثانياً: الولاء للقبيلة:

خلق الله تعالى الإنسان ذا رغبة جامحة إلى تحقيق وجوده، وتعزيز كيانه، وعندما يشعر بالانتماء يزداد ثقةً بنفسه، ويتأثر سلباً وإيجاباً بما ينتمي إليه، والقبيلة عند العربي تعني: "جماعة ينتسب جميع أفرادها إلى جدّ مشترك، ويعتقدون أن رابطة الدم الواحد تجمع بينهم".[١٨]

فالنسب هو الرابط الذي يجمع شتات القبيلة، ويوحّد أفرادها على رأي واحد، " ويُفَسَّر ذلك بارتباط أبناء القبيلة كلها بنسب واحد وبصلب جد أعلى؛ من صلبه انحدر جميع أفراد القبيلة في اعتقادهم"[١٩].

والمتأمل لحال العربي يجد ولاءه وانتماءه إلى القبيلة إنما هو نتاج حالة نفسية واجتماعية، فلا يستطيع الإنسان العيش بمعزلٍ عن الآخرين، لأنه "يعتمد في تحقيق كثير من متطلبات حياته المادية، والمعنوية، والطبيعية، على الآخرين، وهذا يحتم مشاركته لغيره لإشباعها؛ لأن قدرته الفردية تعجز عن الوفاء بها". [٢٠]

ومن هنا يمكننا القول إن الولاء للقبيلة إنما هو دافع فطري يجعل العربي يميل إلى الاجتماع والاشتراك مع بني جنسه في مختلف أوجه نشاطهم، وقد يشعر بالضيق والوحشة إذا لم يكن بين أفراد مجتمعه الذي ينتمي إليه.

وللبيئة أثر واضح في انتماء العربي للقبيلة تحتمه عليه الطبيعة القاسية التي يعيشها "فهم رحّل يتطلبون الكلأ، وهم فقراء ثروتهم في كثرة ماشيتهم، فقد تنفق الماشية، وينضب ماء الآبار، ويقلّ المطر فيقِلّ المرعى ويسوء العيش". [٢١]

ولا يمكن أن نرى إنسان ذلك العصر بمعزلٍ عن مجتمعه، فالعربي مُدرك لأهمية الانتماء والتمسك بالقبيلة التي تمثل في حياته وحدة سياسية واجتماعية لا يمكن له الاستغناء عنها تحت أي ظرف من الظروف.

وأوضح دليل على ولاء الجاهلي لقبيلته ما سطّره لنا فُرْعُل الطائي، وقيل إنها لهُنَيَّ بن أحمر الكناني، وفي نسبتها اختلاف كثير[٢٢] حيث يتوسل:

---

[١٧] السابق ١/ ٥٩ – ٦٠

[١٨] العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، د. إحسان النص/ ٥٩، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٧٣م

[١٩]) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد على ٣١٣/٤ ، ط١ دار العلم للملايين، بيروت ، ١٩٧٠

[٢٠] المدخل إلى علم الاجتماع، د. سناء الخولي/ ١٥٦، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٨

[٢١] أحمد أمين، فجر الإسلام ٤٤ – ٤٦

[٢٢] وعلى هذا الاختلاف لم أجد من نسبها إلى الفرعل، ونُسبت لهُنَيَّ بن أحمر الكناني في معجم الشعراء وغيره. الحماسة البصرية تح د عادل هامش ٤٧/١

يا ضَمْرُ أخبرني ولست بكاذب
وأخوك ناصحك الذي لا يكذب
هل في السويَّة أن إذا استغنيتمُ
وأمنتُمُ فأنا البعيد الأجنب
وإذا الشدائد مرة أشجتكمُ
فأنا الأحبُّ إليكم والأقرب
وإذا تكون كريهة أدعى لها
وإذا يُحاس الحيس يدعى جُنْدَبُ
عجبٌ لتلك قضية وإقامتي
فيكم على تلك القضية أعجب[٢٣]

فعلى الرغم من إساءة قومه له، وتفضيل غيره عليه وقت الرخاء، وحاجتهم الملحَّة للشاعر وقت الحرب، ولجوئهم إليه وقت الشدائد، ما يدعو إلى عجب الشاعر، وهم بفعلهم هذا يعدون في اللئام الذين تأنف نفوس الكرماء مخالطتهم والبقاء معهم، غير أن الشاعر يبيِّن شدة الولاء لقومه، مع شدة العجب لهذا الولاء من الشاعر نفسه، فهو يعجب لهذه القضية، والأعجب من ذلك هو بقاؤه معهم وعدم مفارقتهم، لتتضح لنا بجلاء صورة ولاء الجاهلي لقبيلته.

ومن مظاهر الولاء للقبيلة ما خلَّده لنا الشعراء من مآثر قومهم التي يفخرون بها على غيرهم، ويظهر ذلك في قول مُضَرِّس بن رِبْعيّ[٢٤]:

نحن الذين لنا مجد ومكرمة
والسابقون إذا ما أغلى الخطر
والمانعون إذا كانت ممانعة
والعائدون بحسناهم إذا قدروا[٢٥]

فمجدُ قومه ظاهر في شجاعتهم إذا ما نابهم خطر، فهم يتسابقون إليه مدافعين عن قبيلتهم وشرفهم، مخلدين مآثرهم، فهم محسنون إلى المسالمين كرماء معهم، أشداء على المقاتلين لا يلينون لهم وتخليد مآثر القبيلة من أوضح الدلائل على ولاء الشاعر الجاهلي لقبيلته.

ويرى المُتَلَمِّس جرير بن عبد المسيح قوة قومه ومنعتهم أنهم يقوِّمون غيرهم إذ يقول:

وكنا إذا الجبار صعَّر خدَّه
أقمنا له من زيغه فتقوَّما
أمنتفلاً من نصر بُهْثَةَ خلتني
ألا إنني منهم وإن كنت أينما[٢٦]

فهو من شدة ولائه لقبيلته يرى أنهم لا يقوِّمون ضعفاء الناس، بل بلغ بهم الأمر أنهم يقوِّمون الملوك الأشداء، ثم يبين الشاعر ولاءه لقومه، ويؤكد انتسابه لهم ومناصرته لهم وعدم الإخلال بواجبه تجاههم وإن كان ذلك يؤدي به إلى العيش فقيراً معدماً، وهذا دليل على أن الشاعر الجاهلي لا يساوم في ولائه لقبيلته.

ونصغى إلى أوس بن حجر إذ بلغ به ولاؤه لقومه وشدة انتمائهِ لهم أن جعلهم

---

[٢٣] السابق ٤٧/١

[٢٤] يقول الدكتور عادل سليمان: وأغلب ظني أنه إسلامي، لا جاهلي كما قال المؤلف، فقد قال المرزباني: إن له خبرا مع الفرزدق، وروى له شعرا يدل على أنه إسلامي. انظر: هامش الحماسة البصرية ١/ ١٠٦

[٢٥] السابق ١٠٦/١

[٢٦] السابق ١/ ١٣٦ – ١٣٧

كجناحي الصقر، فلا ينهض بدونهما، وجعلهم مكان أداة البطش من الإنسان، فعزّ المقاتل بعشيرته وأبناء قبيلته، إذ يقول:

وقومُكَ لا تجهل عليهم ولا تكن
لهم هَرِشاً تغتابُهم وتقاتلُ
فما ينهض البازي بغير جناحه
وما يحمل الماشين إلا الحوامل
ولا قائمٌ إلا بساقٍ سليمةٍ
ولا باطشٌ ما لم تُعِنْهُ الأنامل[٢٧]

***

ثالثاً: الصبر

لقد كان لطبيعة العصر الذي عاشه الإنسان الجاهلي أكبر الأثر في تشكيل شخصيته، إذ إن طبيعة العصر الجاهلي تتطلب منه الصبر، وعدم الجزع أو الخوف لأنهما ينافيان القوة التي كان لزاماً على إنسان ذلك العصر التحلي بهما.

لقد صبر العربيّ على جمر المعارك، لأنّ خُلق الشّجاعة أملى عليه ذلك، فلا مجال للنّكوص والتّعريد، لأنّ ذلك معرّة وعيب كبير، ومن أحسن ما قالوا في الصّبر قول نهشل بن حرّي بن ضَمْرة الداري:

ويَومٍ كأنَّ المصطلينَ بحرّه
وإن لم يكن جمر قيام على الجَمر
صَبرنا له حتّى يَبُوخ وإنّما
تُفرّج أيام الكريهة بالصّبر[٢٨]

والصبر عند الجاهليين قد يكون صبراً على الحروب والقتال، وقد يكون صبراً على الضراء والمصائب، وخير دليل على ذلك قول خداش بن زهير العامري إذ يقول:

ألم تعلمي والعلم ينفع أهله
وليس الذي يدري كآخَرَ لا يدري
بأنا على سَرَّائِنا غير جُهَّل
وأنا على ضَرَّائِنا من ذوي الصبر
ونفري سرابيلَ الكماة عليهم
إذا ما التقينا بالمهَّندَة البُتْر
وقد علمت قيس بن غيلان أننا
نَحُلُّ إذا خافَ القبائلُ بالثَّغْرِ
ونصبر للمكروه عند لقائه
فنرجعُ عنه بالغنيمة والذكر[٢٩]

فالصبر كما يصوره لنا الشاعر صَبْرٌ على الضراء وما يحلّ بالإنسان من رزايا فهو ينفي عن نفسه وقومه الجهل، ويثبت لهم صفة الصبر عند وقوع الضراء وكأني به – وهو جاهلي – يرى بعين البصيرة الثاقبة ما ذكره الحبيب المصطفي صلى الله عليه وسلم في أمر المؤمن وكيف تكون العاقبة لصبره إذ يقول: " عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سرَّاء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له ".[٣٠]

ثم يعود لتأكيد قيمة الصبر بعد ذلك بقوله:

ونصبر للمكروه عند لقائه
فنرجع عنه بالغنيمة والذكر

---

[٢٧] السابق ٣٦٣/٢
[٢٨] السابق ١١٦/١
[٢٩] الحماسة البصرية تح د عادل ٢٦٨/١
[٣٠] صحيح مسلم، الزهد والرقائق ٢٩٩٩

فالصبر يكون عند وقوع المكروه، والشاعر يجعله في ساحات الحرب والوغى، وكأني به يستحضر المقولة الشهيرة: الحرب صبر ساعة، فهو يذكر أن عاقبة الصبر العودة بالغنائم والثناء الحسن وتخليد المآثر.

ومن ذلك قول أوس بن حجر التميمي:

أيتها النفس أجملي جزعاً

إن الذي تحذرين قد وقعا[٣١]

فالشاعر يسلِّي نفسه بالصبر، والرضا بما كُتِبَ له، وأن الحذر لا يردّ القضاء بل إنه يوصي نفسه بعدم الجزع الذي ينافي في حقيقته الصبر، فلا تجزعي ولا تضطربي وقد وقع الأمر، فسلمِّي وكوني قنوعة وتحلي بالصبر.

لقد تعوّد العربيّ علي هذه الحياة، وصبر على التّفرد بالفلوات والقفار، لأنّه جُبِل على هذا الخُلق، فقد صبر على المعارك وعلى نوائب الدّهر، ولم يثنه هذا الخلق على ما نزل به من نوازل، وما حلّ به من خطوب جسام لأنّه فُطر على ذلك، لذلك تمسّك بهذا الطّبع، فصبر على الجوع والفقر، لأنّ عفته تُملي عليه ذلك؛ حتّى لا ينزلق في مهاوي المذلّة والهوان، فالموت عنده أكرم من حياة الذّلّ، عبّر عن ذلك عنترة بن شداد في قوله:

ولقدْ أَبِيْتُ على الطَّوى وأَظَلُّهُ

حَتَّى أنالَ به كَريمَ المأْكَل[٣٢]

وكانت القناعة والصّبر على الجوع عند الجاهليين ضربا من ضروب العفّة، فالعفيف يستفّ التّراب، ولا يمدّ يده للآخرين، يقول الشّنفري:

أُديم مِطال الجوع حتى أُميتَه

وأستفُّ تُرب الأرض كي لا يرى له

وأضرب عنه الذكر صفحا فأذهل

عليّ من الطول امرؤ مُتطول[٣٣]

***

(٣١) الحماسة البصرية تح د عادل ١٥٧/٢

(٣٢) السابق ٦٢/١

(٣٣) السابق ٢٥٥/٢

رابعاً: كُره الذّل:

من القيم الإنسانية الفريدة لدى الشاعر الجاهلي كرهه للمذلة والضيم وقد امتاز الجاهلي بإبائه وكرهه للذل، بل إنه يضحي بحياته في سبيل الإبقاء على عزته، وسرعان ما يثور وتتوقد عيناه، عند سماع أي كلمة يحس بأنها إذلالٌ له مهما كان مصدرها حتى وإن كانت من أقرب عزيز، يقول مقبل بن عبد العزى:

أيُوعدني أبو عمرو وذُوني
رجال لا يُنَهْنِهُها الوعيدُ
رجالٌ من بني سهْم بن عمرو
إلى أبياتهم يأوِي الطريد
وكيف أخاف أو أخشى وعيداً
ونصرُهُم إذا أدعو عتيد[٣٤]

فنفيل بن عبد العزى يأبى الذل، ويكره أن يهدده أحد مهما كان ويدفع هذا التهديد والوعيد باحتمائه بقومه، فالشاعر يحس بالعزة والمنعة مادام في قومه، ثم يفخر بهم، وكأنه يدفع الخوف عن نفسه بذكر محامد قومه، وأنهم أصحاب عزة ومنعة إذ يثبت ذلك بأن أبياتهم تأوي كل خائف ومطرود، فهم أصحاب عزة ومنعة وقوة وغلبة.

وفي ذات المعنى يقول بشر بن أبي خازم، رافعاً راية التحدي التي تكشف عن نفس عزيزة، تأبى الذل وتكره أن تعيش حياة الهوان إذ يقول:

أتُوعدني بقومكَ يا ابنَ سُعدى
وما بيني وبينك من ذِمام
متى ما أدْعُ في أسَدٍ تُجِبْني
مُسوَّمةٌ على خيل صيام
تتابعُ نحو داعيها سراعاً
كما انسَلَّ الفريدُ من النظام[٣٥]

فالأبيات مليئة بالمفردات الموحية بأن الشاعر يعيش حياة كريمة عزيزة، متحصناً بقوم وصفهم بالشدة والغلبة والمنعة، حيث إنه وصف قومه بني أسد بالقوة وبأن خيلهم معلمة بعلامات وهي ضامرة البطون.

لما سبق يمكن القول بأن فكرة رفض الذل من الأفكار التي سيطرت على فكر الشاعر الجاهلي، وظلت تسيطر على فكر القوم من بعد حيث " كان بعض العرب يرفضون كل ما يفسر على أنه إذلال لهم، فيروى أن بعضهم ظل على جاهليته إلى ما بعد الإسلام، ولما تولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر المسلمين طالبهم بالجزية، فأبوا أن يعطوها باسم الجزية ثم قبلوا أن يؤدوها باسم الصدقة على أن تكون مضاعفة فقال عمر رضي الله عنه:(أدّوها وسمّوها ما شئتم)[٣٦]

***

---

[٣٤] يقول الدكتور عادل سليمان: لم أجد له ذكرا، ولعل صواب الاسم: نفيل بن عبد العزى جد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وجد زيد بن عمرو بن نفيل، أحد الأربعة الذين اعتزلوا الوثنية في الجاهلية، ويرجح ذلك أن ابن الشجري نسب لنفيل هذه الأبيات. انظر هامش الحماسة البصرية ٢٦٦/١

[٣٥] السابق ٢٧٥/١

[٣٦] الجانب الخلقي في الشعر الجاهلي، زهدي صبري الخوجا، دار الناصر للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٠٤ هـ، /١٨٥

خامساً: الشجاعة:

تعد الشجاعة معلماً بارزاً من معالم الأخلاق الفاضلة التي تتردد كثيراً على مسامعنا، ويتمني كل إنسان أن تكون إحدى صفاته، وقد تختلف النظرة إلى من يستحق هذا اللقب، فتطلق على قوة القلب، وتطلق ويراد بها الفصاحة ومهارة الحديث والطلاقة والجرأة والقوة الجسدية، والعرب أطلقوا لفظ الشجاعة ونراهم " لم يعنوا القوة الجسمية فحسب، بل ما يشمل أيضاً القوة في العقل، والقوة في الخلق، والقوة في الشرف، والكرامة" [٣٧]

"وقد حفل الشعر الجاهلي بصور الشجاعة وضروبها المختلفة، وأبرز مدى اهتمام الإنسان العربي بها، ومدى سعيه للتحلي بأسبابها، ولا يكاد غرض من أغراضه يخلو من تمجيد لهذه القيمة وإعلاءٍ لمكانتها، ولا سيما في غرض الحماسة الذي يأخذ حيزا كبيرا منه"[٣٨]

ولاريب" القيمة الخلقية للشجاعة تقترن لدى الشعراء بالحرب؛ لأنها محك البطولة، ومظهر القوة، فيها يبرز مَعْدِن الرجال، وفيها تتمايز الفرسان، فتتجلي غمراته عمن ثبت فيها، وصبر على شدائدها وأهوالها"[٣٩]

وحين ننظر إلى رؤية العربي وموقفه من الشجاعة نجده يضع الشجاع في موضع الرئاسة والصدارة، فهو القدوة في المجتمع وهو حري بذلك، يقول الحصين بن الحُمَام يصف شجاعة قومه فهم يحاربون مقبلين غير مدبرين لذلك تأتي إصابتهم في صدورهم ووجوههم فتقطر دماؤهم على أقدامهم وقد طرق هذا المعنى غير شاعر من الشعراء على مر العصور:

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد
لنفسي حياة مثل أن أتقدما
فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا
ولكن على أقدامنا تقطر الدما[٤٠]

وحين ننعم النظر في شعر طرفة بن العبد وموقفه من الشجاعة نجده يقرر بأن الموت آتٍ لا محالة، وليس للإنسان أن يبقي مخلداً، لذا فهو يرى الموت في ساحات الوغى والموت على الفراش هو موت واحد، لذلك فهو لا يعبأ بمن ينصحه بعدم حضور الحروب والقتال إذ يقول:

ألا أيهذا اللائمى أحضر الوغى
وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي[٤١]

والمتأمل لصفات الشجاع وملامحه في ساحات الوغى والحرب يجده لا يقاتل إلا من يراه كفؤا له، ولا ينازل من هو دونه لذا فإن الشجاع يبحث عن قائد الجيش، ومن عُرفت عنه الشجاعة من أقرانه فيقاتله، وترى ملامح هذه الشجاعة ظاهرةً جليةً عند خُفاف بن نُدْبَة فهو لايعجل الشبان بطعنة رمحه ولكنه يمّم طعنته صوب كبش

---

[٣٧]) شعر الحرب في العصر الجاهلي، على الجندي/ ٩٠، ط٣، ١٩٦٦ م

[٣٨] الإنسان في الشعر الجاهلي. د. عبد الغني أحمد زيتونة ٢٠٦

[٣٩] الإنسان في الشعر الجاهلي. د. عبد الغني أحمد زيتونة ٢١٥

[٤٠] الحماسة البصرية ٥١/١ تح مختار الدين أحمد ط٢ عالم الكتب بيروت ١٤٠٣ه

[٤١] الحماسة البصرية ٢٧٠/١ تح د عادل

القوم، وطعنةُ خفاف ثاقبة، فتراه يفصح عن عميق تجربته مع عدوه حين يقاتله فيقول:

تيممت كبْشَ القوم لما عرفته
وجانبت شُبَّان الرجال الصَّعالكا
وجادتْ له مني يميني بطعنةٍ
كَسَتْ مَتْنُه من أسودِ اللونِ حالكا
وقلت له والرمحُ يأطِرُ مَتنه
تأمل خُفــافــاً إننـــي أنـــا ذلكـــــا
فخرَّ صريعاً وانتقذْنا جواده
وحالف بعد الأهل صُمّا دكادِكا[٤٢]

وحين نصغي إلى بشر بن عَوانة، وكان قد خرج في ابتغاء مهر ابنة عمه فعرض له أسد فقتله، ويتجلى لنا في الأبيات كثير من صفات الشجعان حيث إنه لم يهرب بل واجه الخطر وقاتل الأسد حتى قتله ولم يفر، لأنه يرى الموت أهون عليه من الفرار فهو يوضح هذه المعاني بقوله:

أفاطمَ لو شهدت ببطن خبْتٍ
وقد لاقي الهزبر أخاك بِشراً
إذنْ لرأيـــتِ ليثاً أمَّ لـــيثـــاً
هــزبراً أغلــباً يبغي هـــزبرا
وأنتَ تروم للأشبال قوتاً
ومُطَّلَبِي لبنت العمِّ مهراً
ففيم ترُمُ مثلي أن يولي
ويترك في يديكَ النفسَ قسرا
نصحتك فالتمس يا ليث غيري
طعاماً إنَّ لحمي كان مراً
فخرَّ مضرجاً بدم كأني
هدمت به بناءً مُشْمَخِرَّا

(٤٢) السابق ٣٢١/١

تحاول أن تعلمني فراراً
لعمر أبي لقد حاولت نُكرا
فلا تبعد فقد لاقيت حراً
يحاذر أن يعاب فمُتَّ حُراً[٤٣]

ويبرز عبد القيس بن خُفاف البُرْجُميّ القيمة الخلقية للشجاعة من خلال فاضلة، وسيرة حسنة، وشرف أبيض ناصع، حين افتخر بأنه يأخذ بأسباب القوة ودواعي الشجاعة، فيهيئ نفسه بسيف صقيل، ورمح طويل، ودرع سابغة فيقول[٤٤]:

صحوت وزايلني باطلي
وأصبحت أعددت للنائبا
ووقع لسان كحد السنان
وسابغة من جياد الدرو
كمتن الغدير زفتْه الدبور
فهذا عتادي وإنـــي امـــرؤ
لعمر أبيك زِيالا طويلا
ت عِرضا بريئا وغضْبا ثقيلا
ورمحا من الخط لدنا طويلا
ع تسمع للسيف فيها صليلا
يجر المدجج منها فُضولا
أوالـــي الكـــريم وأجفو البخيلا[٤٥]

(٤٣) السابق ٣٣٢/١ ، ويقال: إنه ليس جاهليا، وليس شاعرا من لحم ودم، بل شخصية قصصية، ابتكرها بديع الزمان الهمزاني في: المقامة البشرية، ووضع على لسانها هذه القصيدة. انظر: الوهم في بشر بن عوانة، مأتاه ودلالاته، نشر في مجلة كلية اللغة العربية جامعة الأزهر بالمنصورة. العدد ٢٣- ٥- ١٥٠

(٤٤) الإنسان في الشعر الجاهلي. د. عبد الغني أحمد زيتونة ٢١٤ بتصرف

(٤٥) الحماسة البصرية تح د. عادل ١٢٦/١

سادساً: الكرم:

الكرم صفة من أبرز الصفات في العصر الجاهلي وكان العرب يتباهون بالجود والكرم والسخاء، وكان الكريم يعرف بينهم إذا أجدبت الأرض، وجف الضرع، وتعالى صياح الصبية، عند ذلك يعرف الكريم، فالكريم في ذلك الوقت وتلك الحاجة هو الذي يشعل ناره ليهتدي إليها المسافر وابن السبيل، ويكرم أهله وجيرانه ويصل رحمه، ومهما اختلفت الدوافع فإن الكرم من القيم الإنسانية النبيلة التي تجعل من الكريم رجلاً محبوباً معظماً بين قومه، فالسخي قريب من الناس، وقد تغنى الشعراء العرب في جاهليتهم بالكرم ومدحوا الكرماء وأثنوا عليهم ومجدوهم ورفعوا من قدرهم.

ولاشك فإن شهرة الكرم والكرماء بين العرب لا تكاد تعدلها شهرة، حتى اقترنت بعض الأسماء في الأذهان فقيل: "أجود من حاتم الطائي، وأجود من كعب بن مَامَة، وأجود من هَرِم بن سنان"[٤٦]

والكرم: وسيلة من وسائل السّيادة عند الجاهلي، ولا عجب في ذلك؛ لأنّ صاحبه يجود بماله من أجل أهداف إنسانية نبيلة، وقد بيّن ذلك حاتم الطّائي في قوله:

يقولون لي: أهلكتَ مالك فاقتصدْ
وما كنتُ، لولا ما يقولون سيدا
سأذخر من مالي دِلاصا وسابحا
فذلك يكفيني من المال كله

وأسمرَ خطيا وعضْبا مهندا
مصونا إذا ما كان عندي مُتْلدا[٤٧]

ومن هذا القبيل ما اشتهر به هرم بن سنان، الذي خلد ذكره زهير بن أبي سلمى في أكثر من قصيدة، نظير ما تمتع به من كرم وسخاء وإصلاح بين عبس وذبيان، وبذله لماله في سبيل ذلك، فيصفه بالندى، والسماحة، مبرزاً هذه الملامح بأسلوبه الرائع المبين إذ يقول:

من يلق يوماً على علاّته هرمـــاً
يلق السمـــاحة منه والندى خُـــلُقـــا[٤٨]

وقد شاع عن العرب كنايتهم عن الكريم بكثرة رماد القدر، دليلاً على كثرة ما يقري به الضيوف ومنه قول أوس بن حجر:

كثير رماد القدر غير ملعّن
ولا مؤيس منها إذا هو أخمدا[٤٩]

وفي هذا السياق يقول شاعر آخر:

يبيت غبوقي الماءَ والضيف طاعم
له عندنا حقٌّ من الله واجب
إذا لم يكن بعضُ الذي يُقْتَفَي به
فلا بد أني ضاحك وملاعب[٥٠]

فالشاعر يبيت ولم يأكل طعاماً ويكتفي بأن يحسو حسوات من الماء، لمعرفته بحق الضيف ووجوب إكرامه، فهو يكرمه، وإن لم يجد ما يكرمه به فإنه يضاحكه ويلاعبه ويلاطفه، وهذا من دلائل إكرام الضيف والاحتفاء به،

---

(٤٦) مجمع الأمثال، أحمد بن محمد الميداني، تح محمد محي الدين عبد الحميد ١٨٣/١ – ١٨٨ ، مطبعة السعادة مصر ١٩٥٩م

(٤٧) الحماسة البصرية تح د عادل ٢٤٩/٢

(٤٨) الحماسة البصرية ١٧/٢ تح مختار الدين أحمد

(٤٩) الحماسة البصرية ٥٤٥/١ تح د عادل سليمان

(٥٠) كذلك وردت بدون عزو.

فقد يكون ذلك ساتراً لما وقع من تقصير نحو الضيف، والعربي مجبول على الجود بالموجود، وهذا طبعه وسجيته ودينه.

***

سابعاً: إسداء النصيحة والتجارب:

لعل من أجمل القيم الإنسانية النبيلة والصفات الحميدة التي تناقلها بنو البشر، إسداء النصيحة والتجارب، فمنذ أقدم العصور نجد إسداء النصح وخلاصة التجارب ذات قيمة عالية فمن خلالها يسدي الناصح للمنصوح عصارة تجربته وخبراته، وحسن استقبال النصيحة والعمل بها من صفات الكرام وأصحاب النفوس الكبيرة، لأنهم هم القادرون على أدائها وكذلك على حسن استقبالها والعمل بها، والعربي الجاهلي اكتسب وتعلم من مدرسة الحياة الكثير من الخبرات.

وعلى الرغم من أن النصيحة المراد بها الخير للمنصوح واستقامة أمره، إلا أن المنصوحين في بعض الأحيان يتمردون على الناصح، ويرفضون نصيحته استكباراً واستهتاراً، وفي حقيقة الأمر أن الذي رفض النصيحة هو الخاسر الوحيد، ومن ذلك قول لقيط بن حارثة بن معبد الإيادي يحذر قومه من غزو كسرى ويحثهم على الاستعداد له :

أبلغ إياداً وخلل في سراتهم
أني أري الرأي إن لم أُعْصَ قد نصعا
يا لهف نفسي إن كانت أموركمُ
شتـــى وأحكـــم أمـــر الناس فاجتمعـــا
مالي أراكم نياماً في بُلَهْنِيَةٍ
وقد ترون شهاب الحرب قد سطعا
لا تثمروا المال للأعداء إنهمُ
إن يظهروا يحتووكم والتلادَ معا
قوموا قياماً على أمشاط أرجلكم
ثم افزعوا قد ينال الأمن من فزعا[٥١]

إلا أن قومه لم يجيبوه، ولم يأخذوا بنصحه فصبحهم كسرى وقتلهم، ولم يسلم هو أيضاً حيث افتضح أمر الرسالة فقطع لسانه ثم قُتل.

ومن معالم إسداء النصيحة مانجده في قول أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم:

لا تيأسن إذا ما ضقت من فرج
يأتي به الله في الروحات والدلج
فما تجرع كأس الصبر معتصم
بالله إلا أتاه الله بالفـــــــــرج[٥٢]

حيث راح الشاعر ينصح بعدم اليأس والضجر والسأم من الضيق في الأمور، ذاك لأن فرج الله يأتي في طرفة عين، والإنسان المعتصم والمتجرّع لكأس الصبر حتماً سيأتيه فرج الله القريب، وكأني بالشاعر رغم جاهليته يرى قول الله تعالى: (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) [٥٣] فالإنسان لابد أن يستشرف المستقبل المشرق، وإلا فإن اليأس قاتله، وإن تأخر الفرج يجب على الإنسان أن يثق في مولاه، وكما قيل الصبر مفتاح الفرج فإذا صبر الإنسان أتاه الله بالفرج، وفي هذه الأبيات نفحات إسلامية وكأن قائلها من شعراء

---

(٥١) الحماسة البصرية تح د عادل ١/ ٢٨٦ - ٢٨٧
(٥٢) السابق ٢/٢٣٠
(٥٣) سورة الشرح

الصدر الإسلامي، وقد أسدى لمن حوله هذه النصيحة التي تكتب بماء الذهب .

ويسدي طرفة بن العبد لنا نصيحةً أخرى، تتكئ على عدم الاستعجال والتريث فإن ما تكنّه الأيام وتضمره سيكشف لا محالة، فدوران الأيام وتعاقب الليالي والسنون ستخبره بما كان يجهل إذ يقول:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً
ويأتيك بالأخبار من لم تزود[٥٤]

ويقرر أمية بن أبي الصلت أن دوام الحال من المحال، لذلك يتوجب على الإنسان أن يكون مستعداً لصولات الدهر وجولاته، فكما أسعد غيرك وأحزنك فإنه سيسعدك ويحزن غيرك إذ يقول:

وقد صرح ورقة بن نوفل بالنصيحة في مطلع أبيات له، حيث يأمر قومه بعبادة الله وحده وينذرهم وهذا خير نصح على الإطلاق إذ يقول:

لقد نصحتُ لأقوام وقلت لهم
أنا النذير فلا يغـــــــــركم أحد
لا تَعْبُدُنَّ إلهاً غير خـــــــــالقكم
فإن دعوكم فقولوا بيننا حَدد
لا شيء مما ترى تبقى بشاشته
يبقى الإله ويودى المال والولد
أين الملوك التي كانت لعزتها
من كل أوب إليها وافـــــــد يفد
حوض هنالك مورود بلا كذب
لابد من ورده يومـــاً كما وردوا[٥٥]

ثامناً: الحكمة:

الحكمة لون بديع من الوان الشعر الجاهلي، والذي لم يدرك كنه العلاقة بين الحكمة وإسداء النصيحة والتجارب يتوهم أن هناك تداخلاً بينهما، وحقيقة الأمر أنهما يكمل بعضهما بعضا، فالحكمة تصدر عن إنسان حكيم يضع الأمور في مكانها اللائق بها، وتعّد الحكمة قيمة إنسانية يحتاج إليها البشر جميعاً، وبخاصة القادة، وأصحاب الحل والعقد في كل مجتمع من المجتمعات، فإذا فقدت الحكمة فهو إيذان بدمار المجتمع، وكان الشعراء الجاهليون أصحاب خبرة وتجربة وحكمة، نجد ذلك في نتاجهم الشعري، يقول السموءل بن عاديا :

إذا المرء لم يَدْنس من اللؤم عرضه
فكل رداء يرتديه جميل[٥٦]

فسعادة المرء وراحته أن يبتعد الناس عن قذفه بأشياء لم تكن فيه، وإذا سلم من هذه الأمور، وبخاصة ما يتعلق بالعرض والشرف، فإن كل شيء يتصل به في حياته جميل في نظره؛ ونظر الآخرين، لصفاء نفسه وكرم أخلاقه.

ومن بديع القول مانظمه أوس بن حجر:

وليس أخوك الدائم العهد بالذي
يسوءُك إن ولّى ويُرضيك مقبلاً
ولكنه النائي إذا كنت آمنا
وصاحبُك الأدنى إذا الأمر أعضلا[٥٧]

---

(٥٤) الحماسة البصرية تح د عادل ٣٥٥/٢

(٥٥) السابق، ج٢، ص: ٤٤٥

(٥٦) يقول د عادل: ويروى البيت لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي من شعراء الدولة العباسية. الحماسة البصرية تح د عادل ١/ ١٤٦

(٥٧) السابق ٣٣٣/٢

حيث راح يقرر بأن معاني الأخوة الحقة إنما تتجسد في العهد الدائم الذي يربط بين الأخ وأخيه، والأخ الذي يعرف قيمة الصداقة والمحافظة على الودّ في الحل والترحال والأخ الحقّ هو الذي تجده إلى جانبك إذا ادلهم الخطب وعظم الأمر.

***

تاسعاً: حسن المعاشرة:

من أهم القيم الإنسانية الرفيعة التي عرفها العرب في جاهليتهم كرههم للأخلاق السيئة، وهي من آفات المجتمعات التي لا زالت تحيط بالمجتمع البشري، فالكذب والوشاية، والسب والشتم من الأمور المدمرة للمجتمعات؛ لذلك نجد العربي الجاهلي نبذها وحذر منها فنجد مَعْبَد بن عَلْقمة يحذر من الشتم والسباب وأنه ليس من عادات الكرام، ويربأ بنفسه أن يكون كذلك، وإن كان خصمه بادره بذلك، فإنه لا يعامله بالمثل إذ يقول:

فقل لزهير إن شتمت سراتنا
فلسنا بشتامين للمتشتم[٥٨]

ومن حسن المعاشرة أن يكون الإنسان هيناً ليناً، يؤلف جانبه، يعطي عن طيب نفس، وفي هذا الصدد يقول عُبيْد بن العَرَندَس الكلابي واصفاً قومه بأنهم لا يتفحشون في الكلام، ولا يتعالون على غيرهم وهم سواسية فلا تستطيع التفريق بينهم، لأنهم جميعاً يحملون صفات واحدة يقول مبرزاً ذلك بأسلوبه الرائع المبين:

هَيْنُونَ لَينون أيسارٌ ذوو كرم
سُوَّاسُ مكرُمةٍ أبناءُ أيسار
لا ينطقون عن الفحشاء إن نطقوا
ولا يُمَارون إن مَارَوْا بإكثار
من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم
مثل النجوم التي يسري بها الساري[٥٩]

وبهذه النظرة المتأنية لأسلوب الشاعر نجده وقد رسّخ في أبياته لمبدأ العدل والمساواة بين أفراد هذه القبيلة.

***

[٥٨] السابق ٣٠/١ يقول د. عادل: إن علقمة ليس جاهليا

[٥٩] السابق ٤٧٧/١

الخاتمة:

بعد الوقوف على ملامح القيم الإنسانية في الشعر الجاهلي من خلال الحماسة البصرية يمكن القول:

- كان العصر الجاهلي يحمل في طيات أشعاره معاني رائعة، تجسدت فيها قيمٌ رفيعةٌ، رغم عدم ظهور الإسلام وحضوره، ولا أدل على ذلك من شيوع وحضور قيمة الكرم والشجاعة...إلخ، وأمثال هذه القيم والمعاني كثيرة في تضاعيف الشعر الجاهلي، حيث حماية الذمار، وصيانة الجار، والوفاء بالعهد، وغير ذلك من القيم والصفات الحميدة التي تحلى بها أبناء ذلك المجتمع.
- لم يكن العصر الجاهلي عصراً وحشياً همجياً دموياً رغم وثنية أكثر شعبه، كما وصفه بعض الدارسين فأضفوا عليه صفات القبح حتى إنه أصبح يتراءى لقارئ الأدب أن العصر الجاهلي عبارة عن مجتمع يخلو من الخير والصفات الإنسانية الكريمة.
- إن العربي قد اكتسب في عصر ما قبل الإسلام هذه القيم، فكانت أحكامهم صادقة، وقد آمن الشّعراء بهذه القيم وقدّسوها والتزموا بها، وضربوا أروع الأمثلة في هذا المجال من أجل أنبل الأهداف وأسمى الغايات.
- أبرزت الدراسة بعض القيم الإنسانية لدي الشاعر العربي في العصر الجاهلي وأثبتت ذلك من خلال نتاجهم الشعري، ولا أدل على ذلك من ولاء العربي لقبيلته، وهو ما يكاد يعرف في وقتنا الحاضر بالنزعة الوطنية.
- إن المجتمع العربي الجاهلي أقرّ بعض القيم الإنسانية الرفيعة وأثنى عليها، ونبذ الكثير من القيم الأخرى التي كان العربي يأنف منها، ويأباها.

***

وأخيرا: لا يزال موضوع القيم الإنسانية وتتبعها عند الشعراء الجاهليين والإسلاميين مجالاً خصباً للدراسة، يمكن من خلاله استنتاج قيم إنسانية نستطيع من خلالها التعرف على تلك المجتمعات وطريقة حياتهم.

المصادر والمراجع

١- الأبحاث الأخلاقية، عادل العوا، دمشق ، ١٩٩٩ م.

٢- أصداء القيم في الشعر الجاهلي، أد عبده السيد فراج، بحث منشور في حولية كلية اللغة العربية بالمنصورة جامعة الأزهر

٣- الإنسان في الشعر الجاهلي د. عبد الغني أحمد زيتونة ط١ – ١٤٢١ه- ٢٠٠١م منشورات مركز زايد للتراث والتاريخ. الامارات العربية المتحدة . العين

٤- تاريخ الأدب العربي أحمد حسن الزيات ط دار نهضة مصر ــ القاهرة ــ ١٩٨١م

٥- الحماسة البصرية لأبي الفرج بن الحسن البصري، تح د. عادل سليمان جمال٢/ ٧، ٨ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة ١٤٠٨ ه – ١٩٨٧م

٦- الحماسة البصرية لأبي الفرج بن الحسن البصري، تح مختار الدين أحمد ط٢ عالم الكتب بيروت ١٤٠٣ه

٧- الجانب الخلقي في الشعر الجاهلي، زهدي صبري الخوجا، دار الناصر للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٠٤ هـــ.

٨- شعر الحرب في العصر الجاهلي، على الجندي، ط٣ ، ١٩٦٦ م.

٩- الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء، أد. محمد محمد أبو موسى ، ط ٢ مكتبة وهبة ٢٠١٢ م

١٠- العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، د. إحسان النص، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٧٣م.

١١- علم اجتماع القيم، محمد أحمد بيومي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.

١٢- الفلسفة وقضايا العصر، عبد الرحمن الزنيدي، دار إشبيليا، الرياض، ط١ ، ١٤١٨ هـــ.

١٣- في فلسفة التربية، أحمد لطفي بركات، دار المريخ للنشر، الرياض.

١٤- لسان العرب، ابن منظور، دار المعارف، القاهرة.

١٥- مبادئ النقد الأدبي: أيغور آرمسترونج رتشاردز، ترجمة مصطفى بدوي ٨٩ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة مصر القاهرة ١٩٦٣م

١٦- مجمع الأمثال، أحمد بن محمد الميداني، تح محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة مصر ١٩٥٩م

١٧- المدخل إلى علم الاجتماع، د. سناء الخولي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٨.

١٨- المدخل إلى الفلسفة: أزفلد كوليه، ترجمة أبو العلا عفيفي ، مكتبة النهضة القاهرة ١٩٦٥م

١٩- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد على، دار العلم للملايين.

٢٠- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، المكتبة الإسلامية تركيا، ط٢.